الباب الأول

من أخلاق العرب

الفروسية:

وهذا قبيصة بن مسعود، يحذر بكر بن وائل، يقول: الجزع لا يُغني من القدر، والصبر من أبواب الظفر، والمنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الثغر أكرم منه في الدبر، وهالِك معذور خير من ناجٍ فرور.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: الشجاعة والجبن غرائز في الرجال، تجد الرجل يقاتل عمن لا يبالي ألا يؤوب إلى أهله، وتجد الرجل يفر عن أبيه وأمه، وتجد الرجل يقاتل ابتغاء مرضاة الله، فذلك هو الشهيد.

أجبن الناس:

يحكى أن عمرو بن معديكرب دخل يوماً على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فقال له أمير المؤمنين: يا عمرو، أخبرني عن أشجع من لقيت، فقال: والله يا أمير المؤمنين، لأخبرنك عن أجبن الناس، وأَحْيَل الناس وأشجع الناس.

يا أمير المؤمنين: خرجت مرة أريد الغارة، فبينما أنا أسير بفرس مشدودة، ورمح مركوزة، وإذا أنا برجل جالس، وهو كأعظم ما يكون من الرجال خَلْقاً، وهو محتبٍ بسيف.

فقلت له: خذ حذرك، فإني قاتلك، فقال: ومن أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معديكرب، فما إن سمع قولي واسمي حتى شهق شهقة فمات، فهذا أجبن من رأيت من الناس يا أمير المؤمنين.

أَحْيَل الناس:

وخرجت يوماً من الأيام، حتى انتهيت إلى حي من أحياء العرب، فإذا أنا بفرس مشدودة، ورمح مركوزة، وإذا بصاحبه في وهدة جالس مطمئن، فقلت له: خذ حذرك فإني قاتلك، قال: ومن أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معد يكرب، قال: أبو ثور؟ قلت: نعم، قال: ما أنصفتني، أنت على ظهر فرسك وأنا في بئر، فأعطني عهداً أنك

لا تقتلني حتى أركب فرسي، وآخذ حذري، فقلت له: لك ذلك، فأعطيته عهداً ألا أقتله حتى يركب فرسه ويأخذ حذره.

فخرج من موضعه الذي كان فيه، حتى احتبى بسيفه وجلس جانباً، فقلت له: ما هذا؟ فقال: ما أنا براكب فرسي ولا بمقاتلك، فإن نكثت فأنت أعلم بنكث عهدك، وما هي من أخلاقك المعهودة، فغلبني ومضيت في سبيلي ولم أتعرض عليه بسوء، فهذا، يا أمير المؤمنين أَحْيَل ما رأيت من الناس.

أشجع الناس:

ثم إني خرجت يوماً آخر، حتى انتهيت إلى موضع كنت أقطع فيه، فلم أر أحداً، فأجريت فرسي يميناً وشمالاً فظهر لي فارس، فلما دنا مني إذا هو غلام قد أقبل نحو اليمامة، فلما قرب مني سلم فرددت عليه، وقلت: من الفتى؟ قال: أنا الحارث بن سعد، فارس الشهباء، فقلت له: خذ حذرك، فإني قاتلك، فقال: الويل لك من أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معد يكرب،قال :عمرو الحقير الذليل؟ والله ما يمنعني من قتلك إلا استصغارك، وحقارتك، فتصاغرت نفسي إليَّ وعَظُمَ عندي ما استقبلني به من الكلام.

فقلت له: خذ حذرك، فوالله لا ينصرف إلا أحدنا، قال: اغرب، ثكلتك أمك فإني من أهل بيت ما نكلنا عن فارس قط، فقلت: ما هو إلا الذي سمعت.

قال: اختر لنفسك، إما أن تطرد لي، وإما أن أطرد لك؟ فقلت: مغتنمها فرصة منك: بل أطرد لي، فأطرد وحملت عليه حتى إذا قلت إني وضعت الرمح بين كتفيه إذا هو قد صار حزاماً لفرسه، ثم أتبعني فقرع بالقناة رأسي، وقال: يا عمرو، خذها إليك واحدة، فو الله لولا أني أكره قتل مثلك لقتلتك.

فتصاغرت إلي نفسي، وكان الموت - والله يا أمير المؤمنين - أحب إلي مما رأيت، فقلت: والله لا ينصرف إلا أحدنا، فقال: اختر لنفسك فقلت: أطرد لي.

فأطرد لي، فظننت أني قد تمكنت منه، فأتبعته حتى إذا قلت إني قد وضعت الرمح بين كتفيه، فإذا هو قد صار لبباً لفرسه، ثم أتبعني فقرع رأسي بالقناة،وقال: يا عمرو خذها إليك ثانية، فتصاغرت إلي نفسي، فقلت: والله لا ينصرف إلا أحدنا.

فقال: اختر لنفسك، فقلت: أطرد لي فأطرد حتى إذا قلت إني وضعت الرمح بين كتفيه، وثب عن فرسه، فإذا هو على الأرض فأخطأته ومضيت، فاستوى على فرسه، وأتبعني فقرع بالقناة رأسي، وقال: يا عمرو، خذها إليك ثالثة، ولولا أني أكره قتل مثلك لقتلتك.

فقلت له: اقتلني، فإن الموت أحب إلي مما أرى بنفسي، وأن تسمع فتيان العرب بهذا، فقال: يا عمرو، إنما العفو ثلاث، وإني إن ظفرت منك بالرابعة قتلتك وأنشأ يقول:

وكَدت أغلاظاً من الأيمان إن عدت يا عمرو إلى الطعان
لتوجرن لهب السنان أو لا فلست من بني شيبان

فلما قال البيتين، كرهت الموت يا أمير المؤمنين، وهبته هيبة شديدة، وقلت: إن لي إليك حاجة قال: وما هي؟ قلت :أكون لك صاحباً، ورضيت بالصحبة معه، قال: لست من أصحابي ، فكان ذلك والله أشد علي وأعظم مما صنع .

ومع كل ذلك، فلم أزل أطلب إليه الصحبة حتى قال لي: ويحك يا عمرو وهل تدري أين أريد؟ قلت: لا، ولكني أحرص على مصاحبتك، قال: أريد الموت عياناً، فقلت: رضيت بالموت معك، فقال: امضِ بنا فسرنا جميع يومنا وليلتنا حتى جنّنا الليل وذهب شطره .

فوردنا على حي من أحياء العرب ،فقال لي: يا عمرو في هذا الحي الموت،ثم أومأ إلى قبة في الحي، فقال: وفي تلك القبة الموت الأحمر، يا عمرو فإما أن تمسك عليّ فرسي، فأنزل فآتي بحاجتي، وإما أن أمسك عليك فرسك فتنزل فتأتي بحاجتي فقلت: لا بل انزل أنت، فأنت أعرف بموضع حاجتك، فرمى إلي بعنان الفرس، فرضيت لنفسي يا أمير المؤمنين أن أكون سائساً له.

ثم مضى حتى دخل القبة، فاستخرج منها جارية، لم تر عيناي قط مثلها حسناً وجمالاً، فحملها على ناقة، ثم قال: يا عمرو. قلت: لبيك، قال: عليك بزمام الناقة.

فسرنا بين يديه، وهو خلفنا حتى أصبحنا ، فقال لي: يا عمرو قلت: لبيك ما تشاء؟ قال: التفت فانظر هل ترى أحداً؟ فالتفت، وقلت: أرى جمالاً، قال: أغذ السير (أي أسرع).

ثم قال لي: يا عمرو، قلت: لبيك، قال: انظر فإن كان القوم قليلاً، فالجلد والقوة والموت، وإن كانوا كثيراً فليسوا بشيء، فالتفت، فقلت :هم أربعة أو خمسة، قال: أغذ السير، وسمع وقع الخيل، فقال لي: يا عمرو، قلت: لبيك قال: كن على يمين الراحلة، ووقف هو عن يسارها.

ودنا القوم منا، فإذا هم ثلاثة نفر فيهم شيخ، وهم أبو الجارية وأخواها، وهما غلامان شابان، فسلموا فرددنا السلام، ووقفوا عن يسار الطريق.

فقال الشيخ: خلِّ عن الجارية يا ابن أخي، فقال: ما كنت لأخليِّها، ولا لهذا أخذتها، فقال لأصغر ابنيه: أخرج إليه، فخرج وهو يجر رمحه، وحمل عليه الحارث وهو يقول:

من دون ما ترجوه خضب الذابل من فارس مستلئم مقاتل
ينمى إلى شيبا ن خير وائل ما كان سيري نحوها بباطل

ثم شد عليه فطعنه طعنة دق منها صلبه فسقط ميتاً. فقال الشيخ لابنه الآخر: اخرج إليه يا بني، فلا خير في الحياة على الذل، فخرج إليه، وأقبل الحارث يقول:

لقد رأيت كيف فراق طعنتي والطعن للقرن الشديد همتي
والموت خير من فراق خلتي فقتلتي اليوم ولا مذلتي

ثم شد عليه ، فطعنه طعنة سقط منها ميتاً. فقال الشيخ: خلِّ عن الظعينة يا ابن أخي ، فإني لست كمن رأيت ، قال: ما كنت لأخلِّيها، ولا لهذا قصدت، فقال له الشيخ : اختر يا ابن أخي، فإن شئت طاردتك، وإن شئت نازلتك، فاغتنمها الفتى ونزل ، ونزل الشيخ وهو يقول:

ما أرتجي بعد فناء عمري؟ سأجعل السنين مثل الشهر
شيخ يحامي دون بيض الخدر إن استباح البيض قصم الظهر
سوف ترى كيف يكون صبري

فأقبل الحارث وهو يقول:

بعد ارتحالي وطويل سفري وقد ظفرت وشفيت صدري
والموت خير من لباس الغدر والعار أهديه لحي بكر

ثم دنا، فقال له الشيخ: يا ابن أخي، إن شئت نازلتك، وإن بقيت فيك قوة ضربتني،وإن شئت فاضربني ، فإن بقيت فيَّ قوة ضربتك.

فاغتنمها الفتى، فقال: وأبدؤك. قال الشيخ أبو الجارية: هات فرفع الحارث السيف ، فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه، ضرب بطنه ضربة فَقَدَّ أمعاءه، ووقعت ضربة الحارث في رأس الشيخ فسقطا ميتين.

فأخذت يا أمير المؤمنين أربعة أفراس وأربعة أسياف، ثم أقبلت إلى الناقة، فعقدت أعنة الأفراس بعضها إلى بعض، وجعلت أقودها، فقالت الجارية: يا عمرو إلى أين؟ ولست لي بصاحب، ولست كمن رأيت، ولو كنت صاحبي لسلكت سبيلهم، فقلت: اسكتي، قالت: فإن كنت صادقاً فأعطني سيفاً ورمحاً، فإن غلبتني فأنا لك ، وإن غلبتك قتلتك.

فقلت لها: ما أنا بمعطيك ذلك، وقد عرفت أصلك، وجرأة قومك وشجاعتهم، فرمت بنفسها عن البعير، وهي تقول:

أَبَعْدَمَا شيخي وبعد إخوتي أطلب عيشاً بعدهم في لذة
هل لا تكون قبل منيتي

وأهوت إلى الرمح، فكادت تنتزعه من يديَّ لقوتها وشجاعتها،فلما رأيت ذلك التصرف منها خفت إن هي ظفرت بي أن تقتلني، فعاجلتها فقتلتها.

فهذا أشد ما رأيته يا أمير المؤمنين، فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: صدقت يا عمرو، حتى لا يغتر المرء بشجاعته وقوته.

موقف فارس بني جشم:

ويحكى أن دريد بن الصمة سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، خرج في فوارس بني جشم يريد الغرة على بني كنانة، فلما كان بواد لبني كنانة رفع له رجل من ناحية الوادي معه ظعينة (الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج).

فلما نظر إليه قال لفارس من أصحابه :صِحْ به أن خلِّ عن الظعينة وانج بنفسك (وهو لا يعرفه)، فذهب إليه الفارس، وألح عليه في ترك الظعينة، فأنذره صاحب الظعينة بعدم التعرض له،فلما أبى الفارس ذلك، ألقى صاحب الظعينة زمام الراحلة، وقال للظعينة:

سيري على رسلك سَيْرَ الآمن سير راح ذات جأش ساكن
إن انثنائي دون قرني شائن أبلي بلائي واخبري وعايني

ثم حمل صاحب الظعينة على الفارس فصرعه،وأخذ فرسه،فأعطاه الظعينة، فبعث دريد فارساً ثانياً، لينظر ما صنع صاحبه، فرآه صريعاً، فصاح بصاحب الظعينة أن يترك الظعينة، فلم يأبه به ولم يلتفت إليه، فظن الفارس الثاني أن صاحب الظعينة لم يسمع قوله فغشيه، فألقى صاحب الظعينة زمام الراحلة إلى الظعينة، ثم حمل على الفارس فصرعه وهو يقول:

خلِّ سبيل الحرة المنيعة إنك لاق دونها ربيعة
في كفه خطية مطيعة أو لا فخذها طعنة سريعة
فالطعن مني في الوغى شريعة

ثم حمل عليه فصرعه،فلما أبطأ على دريد بعث فارساً ثالثاً لينظر ما صنع الفارسان السابقان، فلما انتهى إليهما وجدهما صريعين، ونظر إلى صاحب الظعينة يقود ظعينته مطمئناً يجر رمحه ، فقال له الفارس: خلِّ عن الظعينة وانج بنفسك، فقال صاحب الظعينة للظعينة: أقصدي قصد البيوت، ثم أقبل عليه فقال:

ما تريد من شتيم عابس ألم تر الفارس بعد الفارس
أرداهما عامل رمح يابس

ثم طعنه طعنة فصرعه فانكسرت رمحه، فلما أبطأ رجوع الفرسان الثلاثة الذين أرسلهم البطل الشجاع دريد بن الصمة، أرتاب في الأمر فظن أن الفرسان الثلاثة أخذوا الظعينة وقتلوا صاحبها.

موقف دريد بن الصمة :

فلحق بهم فوجد الفارس صاحب الظعينة لا رمح معه، وقد دنا من الحي ووجد فرسانه الثلاثة قد قتلهم فارس الظعينة، فلما رآه دريد قال له: أيها الفارس إن مثلك لا يقتل ، وإن الخيل ثائرة بأصحابها ، ولا أرى معك رمحاً وأراك حديث السن، فدونك هذا الرمح ، فإني راجع إلى أصحابي فمثبِّطهم عنك.

ما هذه الأخلاق التي يتمتع بها فارس وسيد جشم، يقتل ثلاثة من فرسانه ولا ينتقم، ودريد بن الصمة، الذي غزا نحو مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها، إذ كان مظفراً ميمون النقيبة، أدرك الإسلام ولم يوفق للدخول فيه توفي سنة ثمان (٨ هـ) للهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فرجع دريد بن الصمة إلى أصحابه، فقال لهم: إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فوارسك، وانتزع رمحي، ولا طمع لكم فيه، فانصرف القوم وقال دريد شعراً:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... حامي الظعينة فارساً لم يقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزة ... ثم استمر كأنه لم يفعل
متهللاً تبدو أسرة وجهه ... مثل الحسام جلته أيدي الصيقل
يزجي ظعينته ويسحب رمحه ... متوجهاً يمناه نحو المنزل
وترى الفوارس من مخافة رمحه ... مثل البغاث خشين وقع الأجدل
يا ليت شعري من أبوه وأمه ... يا صاح من يك مثله لا يجهل

صاحب الظعينة:

إن كان ينفعك اليقين فسائلي عني الظعينة يوم وادي الأجزم
إذ هي لأول من أتاها نهزة لولا طعان ربيعة بن مكدم
إذ قال لي أدنى الفوارس ميتة خلِّ الظعينة طائعاً لا تندم
فصرفت راحلة الظعينة نحوه عمداً ليعلم بعض ما لم يعلم
وهتكت بالرمح الطويل إهابهُ فهوى صريعاً لليدين وللفم
ومنحت آخر بعده جياشة نجلاء فاخرة كشدق الأضجم
ولقد شفعتهما بآخر ثالث وأبى الفرار لي الغداة تكرم

من هو صاحب الظعينة؟

صاحب الظعينة: هو ربيعة بن مكدَم بن عامر بن حرثان، من بني كنانة أحد فرسان مضر المعدودين المشهورين في الجاهلية، له أخبار أشهرها حمايته الظعن بعد مقتله، ولا يعلم قتيل حمى الظعن غيره.

وذلك أنه خرج مرة في ظعن كنانة، فلقيهم نبيشة بن حبيب السلمي غازياً، فتقدم ربيعة بن مكدم، فقاتل نبيشة ومن معه طويلاً، فأصابه سهم، فعاد إلى الظعن، وأمه فيه فشدت على جرحه عصابة، فكرَّ راجعاً يقاتل القوم، نبيشة وأصحابه والدم ينزف منه فهابه القوم، فاختار عقبة واتكأ على رمحه، وهو على متن فرسه يراه القوم فلا يجرؤ أن يتقدم إليه أحد منهم.

ثم رموا فرسه بسهم فقمصت وانقلب عنها ميتاً، وكان الظعن قد نجا، ذلك هو صاحب الظعينة، الذي صادفه فارس جشم وسيدها دريد بن الصمة.

مقتل صاحب الظعينة:

قتل ربيعة بن مكدم بن عامر فارس مضر في زمانه سنة ٦٢ قبل الهجرة النبوية، وسبب قتله ما ذكره محمد بن الحسن بن دريد الأزدي العماني، قتله نبيشة بن حبيب السلمي.

يحكى أن نبيشة بن حبيب السلمي كان غازياً، فلقي ظعناً من بني كنانة بالكديد، يوم الكديد: وهو يوم من أيام العرب، وهو موضع يبعد عن مكة المكرمة، حوالي

اثنين وأربعين ميلاً تقريباً، في نفر من قومه وبصر بهم نفر من بني فراس ابن مالك، فيهم عبد الله بن جذل الطعان بن فراس، والحارث بن مكدم أبو الفارعة أخو ربيعة بن مكدم، وكان أبو الفارعة مجدوراً يومئذ يحمل في محفة، فلما رآهم أبو الفارعة قال: هؤلاء بنو سليم يطلبون دماءهم، فقال أخوه ربيعة: أنا أذهب حتى أعلم القوم، فأنبئكم بخبرهم، فتوجه نحوهم، فلما ولى قال بعض الظعن: هرب ربيعة، فقالت أخته أم عزة بنت مكدم: أين تنتهي نفرة الفتى (أي جماعته)؟ فعطف وقد سمع قول النساء فقال:

لقد علمن أنني غير فرق لأطعنن طعنة وأعتنق
أعمل فيهم حين تحمر الحدق عضباً حساماً وسناناً يأتلق

ثم انطلق يعدو به فرسه، فحمل عليه بعض القوم، فاستطرد له في طريق الظعن، وانفرد به رجل من القوم، فقتله ربيعة، ثم رماه نبيشة بن حبيب السلمي فطعنه، فلحق ربيعة بالظعن يدمي (أي يسيل دمه من يده من أثر الطعنة) حتى أتى أمه أم سيار، فقال لها: اجعلي على يديَّ عصابة وهو يرتجز ويقول:

شديَّ على العصب أم سيار لقد رزئت فارساً كالدينار
يطعن بالرمح أمام الأديار

فقالت أمه تجيبه:

إنَّا بنو ثعلبة بن مالك مرزأ أخيارنا كذلك
من بين مقتول وابن هالك ولا يكون الرزء إلا ذلك

قال أبو عبيدة: وشدت أمه عليه عصابة، فاستسقاها ماء، فقالت: إنك إن شربت الماء مت، فكرّ على القوم راجعاً يشد على القوم ويذبهم والدم ينزف منه حتى أثخن، وقال للظعن: أوضعن ركابكن خلفي حتى تصلن إلى أدنى الحي، فلن يخلص إليكن أحد لمكاني، ولا يمنعني لمابي من الدفاع عنكن، وسوف أقف دونكن لهم على العقبة،واعتمدت على رمحي، ففعلنَ فبلغنَ مأمنهنَّ فنجونَ.

قال أبو عبيدة : قال عمرو بن العلاء: لا نعلم قتيلاً ولا ميتاً حمى ظعائن غيره، وإنه يومئذ لغلام له ذؤابة ، قال: فاعتمد على رمحه وهو واقف لهن على متن فرسه حتى بلغن مأمنهن، وما تجرأ أحد التقدم نحوه فرقاً منه.

فلما رآه نبيشة بن حبيب السلمي، قال: إنه لمائل العنق، وما أظنه إلا قد مات، فرموا فرسه فقمصت وتحركت من مكانها فسقط عنها ميتاً ففَّوت الفرصة عليهم ولم ينالوا شيئاً.

قال أبو عبيدة، ولما فاتهم الظعن لحقوا أبا الفارعة الحارث بن مكدم أخا ربيعة فقتلوه وألقوا الأحجار على ربيعة ، فمر به رجل من بني الحارث بن فهر فنفرت ناقته من تلك الأحجار التي أهيلت عليه فقال يرثيه:

نفرت قلوصي من حجارة حرة ... بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفري يا ناق منه فإنه ... سباء خمر مشعل لحروب
لولا السفار وبعد خرق مهمة ... لتركتها تحبو على العرقوب
مر الفوارس عن ربيعة بعد ما ... نجاهم من غمة المكروب
يعدو عليَّا حين أسلم ظهره ... فلقد دعوت هناك غير مجيب
لله درُّ بني علي إنهم ... لم يحمشوا غزوا كولغ الذئب
نعمَ الفتى أدى نبيشة بزه ... يوم الكد يد نبيشة بن حبيب
لا يبعدن ربيعة بن مكدم ... وسقى الغوادي قبره بذنوب

وَرَثَتْ أم عمرو أخت ربيعة أخاها ربيعة بن مكدم فقالت:

ما بال عينك منها الدمع مهراق ... سحا ولا عازب لا، لا ولا راقي
أبكي على هالك أودى وأورثني ... بعد التفرق حزناً بعده باقي
لو كان يرجع ميتاً وجد ذي رحم ... أبقى أخي سالماً وجدي وإشفاقي
أو كان يفدى لكان الأهل كلهم ... وما أثمر من مال له واقي
لكن سهام المنايا من نصبن له ... لم ينجه طب ذي طب ولا واقي
فاذهب فلا يبعدنك الله من رجل ... لاقى الذي كل حي مثله لاقي
فسوف أبكيك ما ناحت مطوقة ... وما سريت مع الساري على ساقي
أبكي لذكرته عبرى مفجعة ... ما إن يجف لها من ذكره ما قي

ذلك بعض أخبار مقتل البطل الشجاع حامي الظعائن، ولـمَّا يشب عن الطوق، فأين شباب اليوم من أولئك الشباب الذين ضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة والإقدام، والإيثار على النفس، فحق لمواقفهم أن تتناقلها الأجيال عبر العصور؟

شجاعة امرأة مؤمنة:

ومن مواقف المرأة الشجاعة: أم علقمة الخارجية،أُسِرَت وأُتي بها إلى الحجاج ابن يوسف الثقفي، فقيل لها: وافقيه في مذهبه، فقد يظهر الشرك بالمكر، فقالت مستشهدة بقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة الأنعام ٥٦].

فقال لها: قد خبطت الناس بسيفك، يا عدوة الله خبط عشواء. فقالت: لقد خفت الله خوفاً صيرك في عيني أصغر من ذبابة، وكانت منكسة رأسها، فقال لها الحجاج: ارفعي رأسك وانظري إلي.

فقالت: أكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه، فقال: يا أهل الشام ما تقولون في دم هذه؟ قالوا: حلال.

فقالت : لقد كان جلساء أخيك فرعون أرحم من جلسائك حيث استشارهم في أمر موسى، فقالوا: (ارجه وأخاه) فقتلها.

فقال العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، وكان شاعراً فارساً، أسلم قبيل فتح مكة المكرمة، وكان من المؤلفة قلوبهم، ويدعى فارس العبيد. ولما سئل عبد الملك بن مروان عن أشجع العرب فقال:

أشد على الكتيبة لا أبالي أَحَتْفِي كان فيها أم سواها

ويروى عن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، أنه قال في شجاعة الأنصار: ما استلت السيوف ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف حتى أسلم أبناء قيلة: يعني الأوس والخزرج.

ومن طبيعة الشجاع [أن] يبادر للحرب غير مبال بها، لثقته بنفسه، وعزمه على التغلب على عدوه، لكنه في نفس الوقت يفرق بين الشجاعة والتهور، والإقدام وانتظار الفرصة المناسبة لينقضَّ على عدوه.

وصف أعرابي قوماً بالشجاعة والإقدام فقال: ما سألوا قط كم القوم، وإنما يسألون أين هم؟.

وسأل رجل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة فقال: صِفْ لي نفسك؟ قال: ما بارزت أحداً إلا ظننت أن روحه في يدي.

وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو من فرسان الإسلام الشجعان قال: أبالموت تخوِّفوني؟ فو الله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط عليّ.

وقال سيف الله المسلول، خالد بن الوليد عند موته: لقد لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ثم ها أنذا أموت على فراشي كما يموت العير - ويقصد بالعير الحمار الوحشي أو الأهلي- فلا نامت عين الجبناء.

والفرق بين العير والعير: العير بفتح العين: الحمار الأهلي، والوحشي،والجمع أعيار،وعيور، والعير في القدم، هو ما شخص منها فوق الأخمص ونتأ فوق ظهرها، والعير في ورقة الشجر هو الخط الناتىء في ظهرها من الوسط، والعير كل شاخص أو ناتىء ممتد في وسط شيء مستو، ومنه عير النصل، وعير جبل بالمدينة المنورة.

والعير بكسر العين: الإبل تحمل الميرة، قال الشاعر:

كالعير في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ثم غلب على كل قافلة يمتار عليها من إبل وبغال أو حمير، والجمع عيرات، وفي المثل جاء قولهم: لا في العير ولا في النفير، أي لا في عير أبي سفيان، القافلة، ولا في نفير أبي جهل، جيش قريش في غزوة بدر الكبرى.

والشجاع بإقدامه يدفع عن نفسه العار والشدة، وينشد لنفسه وقومه الأمان،وإن كان للموت كارهاً، ومن المنية هارباً. قال يزيد بن المهلب بن أبي صفرة يوماً لجلسائه: أراكم تعنفوني في الإقدام، فقالوا: أي والله، إنك لترمي نفسك، فقال: إليكم عني فوالله لم آتِ الموت من حبه، ولكني آتيه من بغضه، وإن لم آتِ الموت مسترسلاً، أتاني مستعجلاً، ثم تمثَّل بقول حصين بن الحمام بن ربيعة المري الذبياني،

شاعر جاهلي كان سيد قومه بني سهم بن مرة بن ذبيان، ويلقب مانع الضيم، وهو ممن نبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية فقال:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

شجاعة عبد الله بن الزبير:

وقال عمر بن عبد العزيز، لأبي مليكة : صف لي عبد الله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جلداً قط ركب على لحم، ولا لحماً على عصب ولا عصباً على عظم مثل جلده، ولحمه وعصبه، ولا رأيت نفساً بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه، ولقد قام يوماً إلى الصلاة فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحيته وصدره، فو الله ما خشع له بصره ولا قطع له قراءته، ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع .

ودخلت عليه أمه، أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، في بيته وهو قائم يصلي، فسقطت حية فتطوقت بابنه هاشم، فتصايح أهل البيت بها حتى قتلوها، وعبد الله قائم يصلي ، فما التفت ولا عجل ، فلما فرغ قال : ما بالكم؟ إنها الشجاعة والصبر والخشوع، ومن كان مع الله كان الله معه فهو يعتبر من شجعان المسلمين، ومن الرُّكع القانتين السُّجُود.

موقف أم البنين من الحجاج:

وقدم الحجاج بن يوسف الثقفي على الوليد بن عبد الملك بن مروان، فدخل عليه لابساً درعاً وعمامة سوداء، حاملاً قوساً عربية وكنانة، فرأته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، فبعثت إلى الوليد بن عبد الملك تسأله عن الأعرابي المستلئم في السلاح؟.

فبعث إليها أنه الحجاج بن يوسف، فأعادت الرسول إليه، فقال: تقول لك: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحياناً أحب إليَّ من أن يخلو بك الحجاج بن يوسف، فأخبره بذلك الوليد بن عبد الملك وهو يمازحه.

فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست قهرمانة، (القهرمان هو كالخازن، والوكيل والحافظ لما تحت يده،

والقائم بأمور الرجل، بلغة الفرس)، فلا تُطلعها على سرك، ومكائد عدوك، ولـمَّا دخل الوليد على أم البنين أخبرها بمقالة الحجاج.

فقالت: يا أمير المؤمنين، حاجتي أن تأمره غداً بأن يأتيني مستلئماً، ففعل ذلك، وأتاها الحجاج فحجبته، فلم يزل قائماً، ثم قالت: إيه يا حجاج، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتال ابن الزبير، وابن الأشعث، أما والله لولا أن الله علم أنك شر خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام، ولا بقتل ابن ذات النطاقين، أول مولود في المدينة بعد الهجرة النبوية من مكة المكرمة، إلى المدينة المنورة.

أما نهيك أمير المؤمنين، عن مفاكهة النساء، وبلوغ لذاته وأوطاره، فإن كن ينفرجن عن مثله فغير قابل لقولك، أما والله، لقد نفض نساء أمير المؤمنين الطِّيب من غدائرهن، فبعنه في أعطية أهل الشام، حين كنت في أضيق من القرن، قد أظلتك رماحهم وأثخنتك كفاحهم، وحين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، فأ نجا ك الله من عدو أمير المؤمنين بحبهم إياه، قاتل الله القائل حين نظر إليك وسنان غزالة بين كتفيك.

فرار الحجاج من البطلة الشجاعة غزالة:

قال الشاعر:

أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا كررت على غزالة في الوغى بل كان قلبك في جوانح طائر

وغزالة هذه هي امرأة شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبا ني، من شهيرات النساء في الشجاعة، والفروسية والإقدام، خرجت مع زوجها على عبد الملك بن مروان سنة٧٦ هـ، أيام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق، فكانت تقاتل في الحروب قتال الأبطال، قال أيمن بن خرم بن فا تك من بني أسد:

أقامت غزالة شوق الضراب لأهل العراقين شهراً قميطا

أي شهراً كاملاً، وأشهر أخبارها فرار الحجاج بن يوسف منها في إحدى الوقائع، أو تحصنه منها حين أرادت دخول الكوفة، وقد عيَّره الشعراء، ومنهم

عمران بن حطان الذي ينسب إليه البيتان الآنفا الذكر: أسد علي.. إلخ، قتلها خالد بن عتاب الريا حي، في معركة على أبواب الكوفة سنة ٧٧ هـ.

تحريض المؤمنين على القتال:

في غزوة أحد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على القتال، وينفخ فيهم روح الإيمان،ويحثهم على الصبر والثبات، فأخذ سيفاً بيده الشريفة، فقال: «**من يأخذ هذا السيف بحقه**»؟ فأحجم القوم، ثم كرر قوله:«**من يأخذ هذا السيف بحقه**»؟، فقام رجال فأمسكه عنهم.

ثم قام أبو دجانة سماك بن خرشة الخزرجي الأنصاري، فقال: ما حقه يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «**أن تضرب به العدو حتى ينحني**». قال: أنا آخذه بحقه، فأعطاه إياه.

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً مقداماً، يختال في الحرب بين الصفوف، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم أنه سيقاتل، فأخرج عصابته تلك فاعتصب بها، ثم جعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن**» إنها الشجاعة والثقة بالنفس، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن شجاعاً مقداماً، لا تأخذه في الله لومة لائم.

أشجع الناس أبو بكر الصديق:

روي عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، أنه خطب ذات يوم في الناس، فقال : (أيها الناس! من أشجع الناس؟) ، فقالوا : أنت يا أمير المؤمنين، فقال: إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه.

ولكن أشجع الناس هو أبو بكر الصديق ﷺ، ففي غزوة بدرجعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ، لئلا يهوي إليه أحد من المشركين؟.

فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر الصديق ﷺ شاهراً سيفه على رأس رسول الله، لا يهوي إليه أحد من المشركين، إلا هوى إليه، فهذا أشجع الناس.

ثم قال الإمام علي بن أبي طالب: ولقد رأيت رسول الله ﷺ، أخذته قريش، فهذا يحاده، وهذا يتلتله ـ أي يدفعه ـ ويقولون : أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟. فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر الصديق يضرب هذا، ويجاهد هذا، ويقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله، وهو يدافع عن رسول الله ﷺ، فترك القوم رسول الله، واتجهوا إلى أبي بكر يضربونه حتى أغمي عليه، ثم رفع الإمام علي بن أبي طالب بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أو أبو بكر الصديق رضي الله عنه؟، فسكت القوم.

فقال الإمام علي كرم الله وجهه: والله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون: ذلك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه.

موقف أبي محجن البطولي:

ومما يروى أن سعد بن أبي وقاص بن مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، فاتح العراق، وبطل معركة القادسية، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ،يقال له فارس الإسلام، أسلم وهو ابن ١٧ عاماً، وتحمل العذاب بسبب الإيمان بالله.

كان سعد مريضاً في إحدى المعارك، التي كان يقودها بنفسه، منعه المرض عنه مباشرة القتال، فكان يرقب المعركة على ظهر بيت،والمشركون يفعلون بالمؤمنين الأفاعيل، وكان أبو محجن عمرو بن حبيب الثقفي لحق بسعد بن أبي وقاص، وهو بالقادسية، وكان منهمكاً في شرب الخمر، وقد حدّه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين مراراً على ذلك.

فكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى سعد بن أبي وقاص أن يحبسه، فلما وصل إليه حبسه سعد عنده، فلما دارت رحى الحرب واشتد القتال في إحدى معارك القادسية، فالتمس أبو محجن من امرأة سعد بن أبي وقاص، أن تحلَّ قيده، وتعطيه فرس سعد،وعاهدها على الرجوع إن سلم من القتل، فأطلقته سلمى امرأة سعد، فركب فرساً بلقاء لسعد، وحمل على المشركين، فجعل سعد يقول : لولا أن أبا محجن في الوثاق محبوساً لظننت أنه أبو محجن، وأنها فرسي، فانكشف المشركون، وجاء أبو محجن ، فأعادته امرأة سعد في الوثاق.

ثم أتت امرأة سعد سلمى سعداً: فأخبرته بموقف أبي محجن، فأرسل سعد إليه فأطلقه، وقال: والله لا حبستك عليها أبداً ـ أي على شرب الخمر ـ فقال أبو محجن: وأنا والله لا شربتها بعد اليوم أبداً.

ومن شعر عنترة بن شداد العبسي في الشجاعة قوله:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهل ... لا بد أن أُسقى بكأس المنهل
فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

شجاعة عمة الرسول صفية:

وهذه عمة الرسول الكريم ﷺ، صفية بنت عبد المطلب ﷺ، قالت صفية: كان حسان بن ثابت شاعر الرسول معنا، في حصن (فارع سوم الخندق)، ومعنا النساء والصبيان، فمر بنا رجل يهودي فجعل يطيف بالحصن، فقلت: يا حسان إن هذا اليهودي ـ كما ترى ـ يطيف بالحصن وأنا والله لا آمن أن يدل علينا من وراءنا من اليهود، ورسول الله ﷺ قد شغل عنا، فانزل إليه واقتله، فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب شجاعة.

قالت صفية: فلما قال لي ذلك، ولم أر عنده شيئاً اعتجرت، ثم أخذت عموداً، ونزلت إليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، وقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل: فقال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب.

ذلك موقف من مواقف الشجاعة والإقدام، امرأة أفضل من رجل للدفاع عن النساء والصبيان يا له من موقف عظيم مشرف!

يروى عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، كان ينشد هذه الأبيات، ويترنم بها:

إن المكارم أخلاق مظهرة ... فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم را بعها ... والجود خا مسها والعرف ساد سها
والبر سابعها والصبر ثا منها ... والشكر تا سعها واللين عاشرها

والعين تعلم من عينَيْ محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أني لا أصدقها ولست أرشد إلا حين أعصيها

إقدام عمرو بن معديكرب الزبيدي:

ومما قال العباس بن مردا س في عمرو بن معد يكرب:
إذا مات عمرو قلت للخيل أوطيء زبيداً فقد أودى بنجدتها عمرو

وعمرو بن معد يكرب الز بيدي، فارس من فرسان الجاهلية والإسلام، وله مواقف مذكورة ، ومواطن مشهورة، أسلم ثم ارتد عن الإسلام، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، وأحوال جسيمة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إذا رآه قال: الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمراً، إعجاباً به وبإقدامه.

الإمام علي يقدم ولده محمداً:

وهذا أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب الشجاع البطل، كان أبوه يلقيه في الوقائع ، ويتقي به عظائم الأمور، وهو شديد البأس، ثابت الجنان، قيل له يوماً: ما بال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه يقحمك الحروب، دون الحسن والحسين؟؟ فقال:
لأنهما كانا عينيه، وكنت أنا يديه، فكان يتقي عينيه بيديه، وقيل: إن أباه عليّاً اشترى درعاً فاستطالها أي وجدها طويلة، فأراد أن يقطع منها قطعة، فقال له محمد: يا أبت علِّم موضع القطع ، فعلَّم الإمام علي موضع القطع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حدده أبوه الإمام علي.

البطل الشجاع المهلب بن أبي صفرة:

وهذا المهلب بن أبي صفرة، كان من الشجعان، ومن الأبطال المعدودين وأولاده كلهم أنجاد أبطال، إلا أن ولده المغيرة كان أشد تمكناً، وكان المهلب يقول: ما شهد المغيرة معي حرباً إلا ورأيت البشرى في وجهه.

وقال المبرد في الكامل: كان المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت في وجهه، نكس على قربوس سرجه، وحمل تحتها فبراها بسيفه، وأثر في أصحابها، وكان أشد ماتكون الحرب أشد ما يكون تبسماً وتفاؤلاً بنصر الله.

من وصايا أبي بكر الصديق:

ويروى أن خليفة رسول الله ﷺ، أبا بكر الصديق كتب يوصي أحد قادة المسلمين قائلاً له: اعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون نوراً يوم القيامة.

قال أحد الشعراء:

ومن يخش أظفار المنايا فإننا لبسنا لهن السابغات من الصبر
وإن كريه الموت عذب مذاقه إذا ما مزجناه بطيب من الذكر

والسابغات جمع سابغة، وهي من الدروع الطويلة التامة، كما يطلق اسم السابغة على الدرع الواسعة، ومما يروى أن النبي ﷺ قال: «**الخير في السيف، والخير مع السيف، والخير بالسيف**»، ولا يحمل السيف بحقه إلا الشجاع البطل.

سيف الله المسلول:

وقال خالد بن الوليد سيف الله المسلول، حين رأى بني حنيفة، قد سلّوا السيوف:

لا يلاعبونا بالسيوف المبرقة إن السهام بالردى مفوقة
والحرب ورهاء العقال مطلقة وخالد من دينه على ثقة

وقال عقبة بن عامر الجهمي: سمعت رسول الله ﷺ، وهو على المنبر يقول: «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة: ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»، وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة أنفس جنته، صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به، ومنبله، فارموا واركبوا، وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا**».

وهذا عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي بالولاء، وكان والياً للمأمون على طبرستان وكرمان، وخراسان والري، والسواد وما يتصل بتلك الأطراف، فظهرت كفاءته القيادية، وقد أعجب كثير من المؤرخين بأعماله، فأثنوا عليه، قال ابن الأثير: كان عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي من أكبر الناس بذلاً للمال، مع علم ومعرفة وتجربة.

وقال ابن خلكان: كان عبد الله بن طاهر سيداً نبيلاً عالي الهمة شهماً، وقال الذهبي في دول الإسلام: كان عبد لله بن طاهر من كبار الملوك ، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، وهو القائل:

يبيت ضجيعي السيف طوراً وتارة تعض بهامات الرجال مضاربه
أخو ثقة أرضاه في الحرب صاحباً وفوق رضاه أنني أنا صاحبه
وليس أخو العلياء إلا فتى له بها كلف ما تستقر ركائبه

استشهاد مصعب بن عمير:

ويحكى في غزوة أُحُد في العام الثالث للهجرة، اندفع المشركون نحو رسول الله ﷺ، فقام مصعب بن عمير يقي رسول الله ﷺ، فقاتل حتى قتل فظن قاتل عمير أنه قَتَلَ رسول الله ﷺ، فأشاع الخبر على أنه قَتَلَ محمداً فسمع المسلمون الخبر وعظمت البلية، وفقد الأمل بعضهم، واندفع آخرون للجهاد في سبيل الله.

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه:

وقدم أنس بن النضر، عم أنس بن مالك على قوم ممن أذهلتهم الشائعة، وألقوا بسلاحهم ، فقال : ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ.

فقال: يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، وماتصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه،وقال: اللَّهم! إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء (يعني المسلمين) وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (يعني المشركين)،ثم لقي سعد بن معاذ سيد الأوس، فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أُحُد، ثم ألقى بنفسه في أتون المعركة،ومازال يقاتل حتى استشهد رَحِمَهُ اللَّهُ.

فوجد به بضع وسبعون ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فلم يعرفه إلا أخته ببنانه،وفيه وفي أمثاله نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [سورة الأحزاب ٢٣].

من أخبارالشباب الشجعان:

ومن أخبار الشجعان، ما حكاه الفضل بن يزيد، قال: نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين، وكنت مشغوفاً بأخبار العرب، أن أستمعها وأجمعها، فبينما أنا أدور في بعض أحياء العرب، إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها،وهي آخذة بيد غلام، قلما رأيت مثله في حسنه وجماله، له ذؤابتان وهي تعاتبه بلسان طيب، وكلام عذب تحن إليه الأسماع، وترتاح له القلوب،وأكثر ما أسمع منه، أي بني وهو يبتسم في وجهها، وقد غلب عليه الحياء والخجل، فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت، فدنوت منه، وسلمت عليه فرد علي السلام، فوقفت أنظر إليهما فقالت:

يا حضري ما حاجتك؟، فقلت: الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام، فقالت : يا حضري إن شئت سِقْتُ إليك من خبره ما هو أحسن من منظره، فقلت: قد شئت يحمك الله.

فقالت: حملته والرزق عسر والعيش نكد، حملاً خفيفاً حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عز وجل أن أضعه، فوضعته خلقاً سوياً، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه، حتى أفضل الله عز وجل وأعطى، وأتى من الرزق بما كفى وأغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه فشب كأنه شبل أسد، أقيه برد الشتاء وحر الهجير، حتى إذا مضت له خمس سنين، أسلمته إلى المؤدب فحفظ القرآن الكريم فتلاه ،وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخرة قومه وآبائه وأجداده، فوجد من التشجيع ما زاده رغبة.

فلما بلغ الحلم، واشتد عظمه، وكمل خلقه حملته على عناق الخيل فتفرس وتمرس، ولبس السلاح ومشى بين بيتات الحي الخيلاء، فأخذ في قري الضيف،وإطعام الطعام، وأنا عليه وجِلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه.

فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحي في طلب ثار لهم،وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج حتى إذا أمعن القوم ولم يبق في الحي غيره ، ونحن آمنون وادعون، إلى أن أدبر الليل، وأسفر الصباح، طلعت علينا غرر الجيا د، وطلائع العدو.

وما هي إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسأل عن الصوت وأنا أستر عنه الخبر إشفاقاً عليه، وضنًّا به، حتى علت الأصوات وبرزت المخدرات أي النساء اللاتي في الخدور، رمى دثاره وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لامة حربه، وأخذ رمحه بيده، ولحق حماة القوم للدفاع عن الحرم.

فطعن أدناهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبياً صغيراً، ولا مدد وراءه، فحملوا عليه، فأقبل يؤم البيت، ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم ففرق شملهم، وشتت جمعهم،وقلل كثرتهم، ومزقهم كل ممزق، وناداهم: خلوا عن المال، فو الله لا رجعت إلا به أو لأهلكن دونه.

فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتيان، وحملوا عليه، وقد رفعوا إليه الأسنة، وعطفوا عليه بالأعنة، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها، ولا كتيبة إلا مزقها، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه، ثم ساق المال، وأقبل به فكبر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فو الله ما رأينا قط يوماً كان أسمح صباحاً، وأحسن رواجاً من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيان الحي هذه الأبيات:

ومن شعر الفارس الشاب الشجاع:

تأملن فعلي هل رأيتن مثله إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعط كلاً حقه ونصيبه من السمهري اللدن والمرهف العضب
أنا ابن هند بن قيس بن مالك سليل المعالي والمكارم والسيب

أبى لي أن أعطي الظلامة مرهف وطرف قوي الظهر والجوف والجنب
وعزم صحيح لو ضربت بحده الجبال الرواسي لاّنحططن إلى الترب
وعرض نقي أتقي أن أعيبه وبيت شريف في ذرى تغلب الغلب
فإن لم أقاتل دونكن وأحتمي لكنَّ وأحميكن بالطعن والضرب
فلا صدق اللاتي مشين إلى أبي يهنينه بالفارس البطل الندب

إنها صفحة خالدة، وموقف نبيل من مواقف الشجاعة، والإقدام والفروسية، فرغم حداثة سنه، وانفراده في الحي استطاع أن يحمي أهله وقومه، فأين شبابنا اليوم من شباب أولئك القوم؟، لقد انقلبت الموازين، وكأن الشاعر الحكيم يعنيهم بقوله:

شباب قنَّع لا خير فيهم وبورك في الشباب الطامحينا

وقال الشاعر:

فوارس، قوالون للخيل: أقدمي وليس على غير الرؤوس مجال
بأيديهم سمر العوالي كأنما تشب على أطرافهن ذبال

وقال آخر:

قوم إذا اقتحموا العجاج رأيتهم شمساً وخِلْتَ وجوههم أقمارا
لا يعدلون برفدهم عن سائل عدل الزمان عليهم أو جارا
وإذا الصريخ دعاهم لملمة بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا

وشهد شاهد من أهلها:

شهادة أحد رجال الروم، على ما كان يتصف به جيش المسلمين ضد جيش الروم، وانتصار جيش الإسلام رغم قلة عدته وضعف عدده وانهزام جيش الروم رغم كثرة عدده، وقوة عدته.

يروى أنه لما انهزم الروم، وقدموا على هرقل وهو بأنطاكية، فدعا رجالاً من عظمائهم فقال: ويحكم أخبروني ما هؤلاء الذين تقاتلونهم؟ أليسوا بشراً مثلكم؟

قالوا: بلى، يعني المسلمين، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم، أضعافاً في كل موطن، قال : ويلكم، فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟ فسكتوا. فقال شيخ منهم، أنا أخبرك أيها الملك من أين تؤتون؟ قال اخبرني: قال : إذا حملنا عليهم صبروا، وإذا حملوا علينا صدقوا، ونحمل عليهم فنكذب، ويحملون علينا فلا نصبر.

قال الملك : ويلكم فما بالكم كما تصفون، وهم كما تزعمون؟ قال الشيخ: ما كنت أراك إلا وقد علمت من أين هذا؟ قال له الملك: من أين هو؟.

قال الشيخ: لأن القوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يظلمون أحداً ويتناصفون بينهم ، ومن أجل أنَّا نشرب الخمر ونزني، ونركب الحرام وننقض العهد، ونغضب ونظلم، ونأمر بما يسخط الله، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض.

قال الملك: صدقتني أيها الشيخ، والله لأخرجن من هذه القرية، فما لي في صحبتكم خير، وأنتم هكذا.

تلك هي حقيقة القوم المؤمنين، الصابرين الصادقين، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وبالمقابل تلك هي حال الكافرين المشركين الغادرين الآمرين بالمنكر والناهين عن المعروف، ويقول الله في كتابه العزيز: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [سورة الروم: ٤٧].

من أشجع الناس؟

ومما لا شك فيه، أن رسول الله ﷺ كان أشجع الناس،وكان الصحابة رضوان الله عليهم يقولون: إذا حمي الوطيس يتقون برسول الله ﷺ.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة ﷺ عري في عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، قال: وجدناه بحراً أو إنه لبحر يعني رسول الله ﷺ.

ويروى أنه أدار المعركة في غزوة حنين، بعشرة من رجاله، التي فرّ فيها إثناعشر ألفاً، ثم كان النصر بعد الهزيمة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾[سورة التوبة ٢٥-٢٦].

وفي غزوة أُحُد كُسرت رباعية الرسول ﷺ اليمنى السفلى، وجُرحت شفته السفلى، وقال رسول الله ﷺ: «**اشتد غضب الله على من دمى وجه رسول الله**».

وكان أبو عامر الفاسق، وقد حفر حفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون، فوقع رسول الله في حفرة منها، فأخذه علي بن أبي طالب بيده، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استو ى قائماً.

وأقبل أبيّ بن خلف، وهو مقنع في الحديد قائلاً: أين محمد لا نجوت إن نجا؟ فقال أصحاب النبي: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه**».

فلما دنا منه تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم،انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه في عنقه تدحرج منها عن فرسه، وهو يخور خوار الثور،ومات لعنه الله بسرف، والمشركون راجعون إلى مكة منهزمين.

موقف أمين الأمة في غزوة أُحُد:

وعالج أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح، إخراج حلقتي المغفر من وجه رسول الله ﷺ، وكره تناولها بيده فيؤذي الرسول،فأزمّ على إحدى الحلقتين بفمه، فاستخرجها، وقد سقطت ثنيته معها، ثم أزمّ على الأخرى فاستخرجها فوقعت الثنية الثانية، فكان أبوعبيدة لذلك من أحسن الناس هتماً أي أحسن صوتاً.

ومص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم عن وجه رسول الله ﷺ، ثم ازدرده أي ابتلعه، فقال رسول الله ﷺ: «**من مس دمي دمه لم تصبه النار**».

ولقد كان لثبات رسول الله ﷺ يوم أُحُد موقف بطوليّ فهذا يدل على شجاعته النادرة، ولولا ذلك الموقف لما تجمع أولئك الأبطال، مثل أبي بكر الصديق، وعمر

ابن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم من الأبطال الشجعان ﷺ أجمعين.

قول الرسول: فداك أبي وأمي

وهذا سعد بن أبي وقاص نثر له الرسول ﷺ كنانته، وهو يقول له: «**ارم فداك أبي وأمي**»، وقد ثبت أن الرسول ﷺ لم يجمع أبويه لأحد فداءً إلا لسعد بن أبي وقاص ﷺ.

وهذا موقف من مواقف أبي طلحة، روى البخاري عن أنس بن مالك، قال: لما كان يوم أُحُد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي مجوب عليه بجحفة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع فكسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمر معه كنانته، فيقول النبي لأبي طلحة: خذ منه وارم.

ويشرف النبي ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف حتى لا يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي الرسول ويقول: إني جلد يا رسول الله فوجهني في حوائجك، ومرني بما شئت.

الدفاع عن الرسول تعدّى الرجال:

وإن ننسَى فلا ننسى في غزوة أُحُد، تلك المرأة الشجاعة المقدامة، التي كانت تدافع عن الرسول الكريم ﷺ في أحرج المواقف، وهي نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية.

قالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس يوم أُحُد وعندي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو في أصحابه والدولة والربح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن قوس حتى خلصت الجراح إليّ.

شهادة الرسول لأم عمارة:

وروى الواقدي بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما التفتُّ يوم أُحُد يميناً وشمالاً إلا وأراها تقاتل دوني**».

وبعد غزوة أُحُد مر الرسول ﷺ بامرأة من بني دينار قد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحُد، فلما نعوا إليها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ ؟.

قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، فقالت : أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل،أي صغيرة لا قيمة لها ، إنه موقف عظيم من مواقف شجاعة المرأة المسلمة، فأين نساء اليوم من نساء أولئك القوم؟

دور الشعر في الجهاد:

وقال معاوية بن أبي سفيان: ما شجعني على علي بن أبي طالب إلا قول عمرو ابن الإطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعد عن رضي صحيح
أبت لي أن أقضي في فعالي وأن أغضي على أمر قبيح

وعمرو بن الإطنابة: هو عمرو بن عامر بن زيد مناة الكعبي الخزرجي شاعر جاهلي، فارس شجاع ، وكان من أشراف الخزرج،اشتهر بنسبته إلى أمه: الإطنابة بنت شهاب من بني القين،وبعض الرواة من يعده من ملوك العرب في الجاهلية، كانت إقامته بالمدينة المنورة، وكان على رأس الخرزج في حرب لها مع الأوس.

وقال نصر بن سيار بن رافع بن حري بن ربيعة الكناني :

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها الكلام

فـــإن لـم يطـفها عـقلاء قـــوم يكـــون وقودهـا جثـث وهـام
فقلت من التعجب بين شعري أأيـــقـــاظ أمـيـــة أم نـيـــــام

ونصر بن سيار هذا صاحب الشعر، كان من الدهاة الشجعان، وكان شيخ مضر بخراسان، ووالي بلخ، ثم ولِّي إمرة خراسان سنة ١٢٠هجرية، وغزا ما وراء النهر، ففتح حصوناً، وغنم مغانم كثيرة، وأقام بمرو وقويت الدعوة العباسية في أيامه، فكتب إلى بني مروان بالشام يحذرهم وينذرهم فلم يأبهوا للخطر، فصبر يدبر الأمور إلى أن أعيته الحيلة وتغلب أبو مسلم على خراسان، فخرج نصر بن سيار من مرو سنة ١٣٠هجرية ورحل إلى نيسابور.

وقال الجاحظ في البيان والتبيين: كان نصر بن سيار من الخطباء الشعراء، يعد في أصحاب الولايات والحروب، والتدبير والعقل وسداد الرأي، مات بساوة عام ١٣١هجرية.

وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجعل يتقون به على عدوهم، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها**».